

المؤسسات التعليمية في بجاية ودورها التعليمي في عصري الموحدين والحفصيين

من القرن (7، 10 هـ / 13، 16 م)

الدكتورة: صفية ديب .

قسم التاريخ والجغرافيا

المدرسة العليا للأساتذة : بوزريعة

Cette étude sur les Institutions Pédagogiques et son rôle à Béjaia à l'époque des Almouvides et les Hafsides durant les siècles du 7 au 16 siècle, donnaient une impression florissante sur la vie scientifique et culturelle et elle reflétait aussi que cette région était une source de savoir aux étudiants qui venaient de partout pour s'inspirer de cette atmosphère bénéfique concernant toutes les disciplines pratiquées et appliquées par ces hautes Institutions chargées de l'enseignement et surtout les écoles coraniques , les rabts, les mosquées - djamâa-, les zaouets, les hôpitaux et les bibliothèques.

Le système pédagogique appliqué à la première phase de l'enseignement dans les écoles coraniques et qui a été destiné aux jeunes élèves ou écoliers basé sur l'enseignement de l'écriture et le coran, la lecture, la calligraphie.

En ce qui concerne la deuxième phase de cet enseignement méthodique au niveau des mosquées qui avaient un statut d'une université de nos jours, elles regroupaient toutes les sciences religieuses et la logique existante à cette époque.

Le choix de la spécialité et le professeur enseignant dépendait ou appartenait directement de

L'étudiant concerné.

Les rabts avaient comme rôle primordial dans la société musulmane l'organisation de l'Armée et la protection de cette ville des attaques des non musulmans, mais aussi étaient chargé d'enseigner la science de la logique et la formation des cadres enseignants.

Cette diversité des tâches dans les écoles de Béjaia, l'enseignement, habitation et pratiques religieuses permettaient la disposition dans chaque école une salle de prière comme un lieu de culte.

Pour les bibliothèques, le nombre était très important, car l'enseignement demandait beaucoup de documents de base pour leurs recherches et travaux appliqués et pratiqués dans les différents domaines utilisés par ces Institutions pédagogiques, écoles, mosquées de cette époque.

La Renaissance Culturelle des hafsides a encouragé aussi le développement de l'enseignement et ces établissements culturels comme les bibliothèques et autres dans les moquées et à la Casbah de la ville.

Donc Béjaia au 13^{ème} siècle connaissait une renaissance scientifique et surtout dans le domaine de la médecine, d'après EL-GHOBRINI, qui confirmait que toutes les recherches et les analyses scientifiques étaient basées sur des textes théoriques.

Cette spécificité de Béjaia dans cette filière ou spécialité ramenée beaucoup de médecins et des professeurs praticiens dans le domaine médical pour exercer leur métier en paix et en toute sérénité dans un monde plus aisé et bénéfique.

تعتبر المدينة القطب الدائر لحركة الإنتاج والتبادل الاقتصادي والثقافي و ملتقى للتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية، وهي الخلية الأساسية في حضارة كل مجتمع ماضيا وحاضرا. والمدن الجزائرية المعروفة لدينا هي المدن التي بقيت قديما أو أنشأت في العصر الإسلامي أو التي أحيها المسلمون ، ومن بين المدن الجزائرية التي لعبت دورا كبيرا في المجال الثقافي والفكري في العهد الإسلامي مدينة بجاية ، التي كانت مركز من مراكز الإشعاع الثقافي والديني، وكعبة لطلاب العلم ، تحل بها الرجال من مصر والشام وتونس والمغرب والأندلس . وسأحاول في هذه الدراسة التعرف على الهياكل والمراكز التعليمية التي كانت تزخر بها بجاية منذ القرن (7 ، 9هـ) (13 ، 15م) ونشأتها وانتشارها وتطورها وما أدته من دور تربوي وتعليمي ، وكانت في مقدمة هذه الهياكل الكتاتيب والمساجد والزوايا والمدارس والمكتبات والبيمارستانات.

تاريخ النشأة

تأسست مدينة بجاية في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي على أيدي الأمير الناصر بن علناس الحمادي ¹ كصنوة لقلعة بني حماد التي هي صنوة لمدينة أشير ²

وكانت في الأصل ميناء بحريا قديما يدعى صلداي³ ، يرد عليه التجار منذ عهد الفنقيين وعندما أسسها الناصر سماها الناصرية نسبة إليه ، ولكن الناس غلبوا عليها اسم أبقايت البربري، الذي كان اسما لأحدى القبائل الأمازيغية القاطنة هناك ، حسب رواية ابن خلدون⁴ ، وبعد أصبحت في المصادر العربية والنطق العربي بجاية⁵ .

وكان الشريف الإدريسي⁶ . أبلغ في إبراز ما وصلت إليه بجاية من رقي وتطور حضاري هائل في منتصف القرن (6 هـ | 12م) حيث قال : "بجاية في وقتنا هذا(ت548هـ | 1153م) مدينة المغرب الأوسط ، وعين بلاد بني حماد ، والسفن إليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع بها نافعة ، وأهلها مياسير تجار ... وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلدان وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، بها دار الصناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن "

وغدت بجاية تحت حكم الموحدين إذ استطاع الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحي (524 558 هـ | 1129، 1162 م) أخذ المدينة وفتحها سنة (547 هـ 1152 م)⁷ و منذ ذلك التاريخ دخلت بجاية تحت لواء الدولة الموحدية الفتية وصارت إحدى عواصمها اللامعة طيلة هذا الحكم ، تمد البلاد المغربية بأطرها العليا من قضاة وكتاب ومدرسين ، مما سنتعرض له لاحقا ، وأوكلت إدارتها في أغلب الأحيان لأمير من الأسرة الحاكمة ، وقد عرفت ازدهارا فكريا في جميع فروع العلم والمعرفة ، وفي سنة (601 هـ | 1204 م) ألحقت بجاية بولاية تونس الحفصية على يد السلطان الموحي الناصر بن منصور ونصب عليها سنة (625 هـ | 1228 م) محمد عبد الواحد بن أبي حفص جد الأسرة الحفصية ، و من ذريته أبو زكرياء يحي الأول المستقل بالدولة ومؤسسها بتونس سنة (626 هـ 1229 م)⁸ . وقد زخرت بجاية بمؤسسات تعليمية كان لها الفضل في انتشار العلم والمعرفة ومن بينها :

الكتاب

اشتق اسم الكتاب من الفعل كتب⁹ ، والكتاب مؤسسة تعليمية ظهرت قبل الإسلام لتعليم القراءة والكتابة ، وبعد الإسلام زيد عليها تحفيظ الأطفال القرآن الكريم وتعليمهم الدين الإسلامي والخط والحساب ومبادئ اللغة¹⁰ . وكان عمر بن الخطاب أول من جمع الصبيان في المكتب وأقام عامر بن عبد الله الخزاعي ليلازمهم للتعليم ، وجعل له رزقا من بيت المال وأمره أن يجلس لهذه المهمة النبيلة بعد صلاة الصبح إلى الضحى العالي ، ومن صلاة الظهر إلى صلاة العصر ، ويسترحون بقية النهار ، ولما رجع عمر من تفقده بلاد الشام رتب للصبيان المتعلمين الاستراحة يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع¹¹ .

وكان الكتاب يصاحب الفاتحين في حلهم و ترحالهم ، فمن مميزات الفتح الإسلامي ببلاد المغرب أنه كان فتحا دينيا وثقافيا قائما على كتاب الله وسنة محمد عليه الصلاة والسلام. وكانت الكتابات عبارة عن مكان مستقل يتسع لمجموعة من الصبيان ، وقد يكون غرفة في منزل¹² أو بجوار زاوية أو حنوت يكترى¹³ أو حجرة ملحقة بالمسجد لا داخله خوفا من النجاسة ، فالإمام مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن رأيه في تعليم الصبيان في المساجد فقال لا أرى ذلك يجوز، لان الأطفال لا يتحفظون من النجاسة، بل أن بعض العلماء المتأخرين تشددوا أيما تشدد سواء كانت عامرة أو خرابا وأفتوا بعدم جواز ذلك¹⁴ وكانت الكتابات عبارة عن بناء بسيط واسع مفروش بحصير أو مشابهاها ، يجلس عليها الصبيان متريعين حول المعلم الذي يختص بسرير أو كرسي مرتفع¹⁵ .

كما كانت تزين بإشعال الشموع ، وتقام فيها الأناشيد الدينية بمناسبة المولد النبوي¹⁶ وكان يقيم في هذه المراكز من التعليم في بجاية معلمون، وقد حدد كل من القابسي ومحمد بن سحنون الشخصية العلمية في إطار معرفة القرآن والنحو والعربية وأيام العرب والشعر فجعلها شخصية دينية بالدرجة الأولى، تحمل القرآن وتهتم بالصلاة ، وتعلمها للصبيان، وتكون أخلاقها نابعة من دينها¹⁷ ، وقد يشترك أكثر من معلم واحد في كتاب واحد إذا كان عدد الأطفال كثر ، ومن بين الذين درسوا بكتاتيب المغرب الأوسط، وبالضبط بمدينة ميلة، أذكر أبا العباس بن عروس صاحب الطريقة الشاذلية¹⁸ . وهذا الغبريني يتذكر في صباه وهو بالمكتب في بجاية أنه التقى بالشيخ العابد الزاهد أبي الحسن علي بن محمد الزواوي فمسح على رأسه وقرأ عليه¹⁹ ومن بين الكتابات التي كانت منتشرة ببجاية ذلك الذي يقع ببلد بني يتورغ²⁰ .

وخلاصة القول أن التعليم كان منتشرا في الكتابات وقد لعب دورا كبيرا في انتشار العلوم في المجتمع البجائي، وهو القاعدة الثانية بعد المنزل الذي ينطلق منه الصبي وتهيئته للانتقال إلى مرحلة أخرى من التعليم وهي المرحلة العليا الأكثر شمولية، و اتساعا وستكون في مؤسسات أخرى من بينها المسجد.

المساجد

كانت المساجد ولا زالت الركيزة الأولى للتعليم ، وأهم المنافذ الثقافية والعلمية، فقد بدأ تشييدها منذ ظهور الإسلام بقصد عبادة الله ، تقام فيها الصلوات وتخطب الخطب ،وتؤدي رسالة الإصلاح بين الناس ، ومع مرور الوقت تطورت هذه المساجد ، بحيث أصبحت جامعات تدرس فيها المراحل النهائية للتعليم مثل جامع القراويين بفاس ،وجامع الأزهر بمصر وجامعي القيروان والزيتونة بتونس ، وجامعي الأعظم والقصبة ببجاية .

والمساجد في مدينة بجاية على نوعين مساجد صغيرة ،ومساجد كبيرة جامعة فا لمساجد الصغيرة أو مساجد الأحياء غير تابعة للحكومة ، ولا دخل لها في إدارتها ، إذ يقوم بتسيير شؤونها أهل الأحياء التي

توجد بها ، ذكر بعضها الغبريني في القرن (7 هـ | 13 م) كمسجد العالم أبي زكرياء الزواوي ²¹ ، ومسجد سيدي المرجاني بحومة اللؤلؤة ²² ، ومسجد الإمام المهدي ²³ ، الذي اتخذه المهدي بن تومرت زعيم الموحدين عند إقامته ببجاية منبرا للتدريس به . أما الدكتور سعد الله فقد قدر عدد المساجد بها حوالي ستين مسجدا ²⁴ .

أما النوع الثاني من المساجد ، فهي المساجد الجامعة فهي واسعة الأركان ، تقام فيها الصلوات الخمس ، و صلاة الجمعة وصلاة العيدين ، وكانت مراكز للحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، فقد اتسع ليستوعب دراسات شتى شملت علم الكلام والفقه والفلسفة والنحو والأدب والطب .

و من المساجد الجامعة التي احتوت عليها بجاية أذكر الجامع الأعظم ، الذي يبدو أنه من بناء السلطان الحمادي المنصور بن الناصر (481 . 1088 / 498 هـ . 1104 م) و الذي قال عنه ابن خلدون إنه "شيد جامعها وتأنق في اختطاط المباني" ²⁵ ولنا فيه وصفا للرحالة العبدري فهو يقول عنه "أنه جامع عجيب منفرد في حسنه ... وهو غاية في الفرجة ينشرح الصدر لرؤيته" ²⁶ وكذا جامع الموحدين ²⁷ وجامع القصبية ²⁸ ، و عن الجامع الأعظم ²⁹ ، فقد اندثر كليا بفعل الاحتلال الإسباني للمدينة ، حيث كان شاهدا للعيان إلى

غاية العقدين الأوليين من القرن السادس عشر ، بشهادة حسن الوزان ³⁰ ومارمول كريخال ³¹ . أما عن جامع القصبية الذي يقع في وسط المدينة ، وقريب من المرسى ، فقد زرتة خلال شهر أوت 2009 بعد ترميمه من طرف وزارة الثقافة والآن فهو عبارة عن مكتبة عامة للقراء والباحثين ، والجدير بالذكر أن اختيار أئمة الجامع الأعظم في مدينة بجاية كان يخضع لهذه القاعدة وهي الكفاءة و التضلع في العلوم الشرعية وقد درس به

العلامة ابن خلدون بطلب من أميرها أبي عبد الله محمد الحفصي ، حيث كتب إليه سنة (766 هـ / 1364 م) يستدعيه من غرناطة ليشاركه في أمره ، ويوليه حجابته (وكان منصب الحجابة يشبه منصب رئيس الديوان في عصرنا الحالي) فغادر ابن خلدون الأندلس ، لهذا الغرض ، ولما وصل إلى بجاية سنة (766 هـ / 1364 م) استقبله أميرها أبو عبد الله وأهل بجاية استقبالا حفيا ، يصفه ابن خلدون إذ يقول : " فاحتفل السلطان

صاحب بجاية لقدمي وأركب أهل دولته للقائي ، وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسحون أعطافي ، ويقبلون يدي ، وكان يوما مشهودا" ³² .

ويمضي ابن خلدون في وصف ما قام به في هذه الفترة فيقول "...وقدمني للخطابة بجامع القصبية، وتدريس العلم أثناء النهار لا أنفك عن ذلك" ³³ .

ونلخص أن المساجد التي زحرت بها بجاية كانت شاهدة على التطور الفكري والازدهار العمراني

اللذين عرفتهما بجاية ، فقد كان كل مسجد في بجاية ، فضلا عن تأديته لوظائفه الدينية المعروفة ، جامعة قائمة بذاتها كما هو الشأن في عصرنا الحالي .

الزوايا

الزاوية مفردتها زاوية ، لغة من الانزواء ومعناه الانعزال و الخلوة ³⁴ ، ويطلق عليها في المشرق الربط والخوانق والخانقات ³⁵ . أما في اصطلاح الشرع فهي مؤسسة ينزوي المرء فيها على نفسه ، ويختلي بها لأداء العبادات التي تظهره من الأدران ³⁶ ، وتعتبر الزاوية الابنة الشرعية للرباط من حيث أنها تتشابه معه إلى حد كبير من حيث الغرض من قيامها ونوعية النزلاء بها ³⁷ والربط، جمع رباط ، ومعناها في اللغة مرابط الخيول ³⁸ ، ثم تحولت الكلمة إلى المكان الذي يعد لملاقات العدو ³⁹ ، ثم تطورت الربط وأصبحت أماكن للعبادة، ومركز علميا لتعليم الثقافة الإسلامية والمعارف الدينية ، وإقامة للصوفية .

والظاهر أن الزاوية بمدلولها الديني والتعليمي، كانت منتشرة ببجاية في القرن (7 هـ / 13 م) حيث ذكرها الغبريني حين تعرضه لترجمة الفقيه أبي الفضل قاسم محمد القرشي (ت 662هـ / 1263 م) فقال عنه " وقفت عند باب الزاوية فأصبتني هيبة وسمعت كلاما بداخلها " ⁴⁰ . وفي تعريف آخر للعالم أبي زكرياء الزواوي (ت 611هـ / 1214 م) في قوله " ثم دخل أبو زكرياء زاويته دون أن يختم مجلسه بالدعاء المعهود منه " ⁴¹ وتعد زاوية الشيخ يحي العيدلي بزمقرة قرب بجاية من أشهر الزوايا بالمنطقة، وهي من تأسيسه ، في أواخر القرن (9 هـ / 15 م) فقد اهتمت هذه الزوايا بتدريس مختلف فروع العلم من تعليم القرآن وتفسيره وعلوم الحديث ، وتدريس الفقه المالكي ، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وعروض وبلاغة وشعر ونثر دون إهمال علم الحساب . وعلم الفرائض ، ومن أبرز خريجي هذه الزوايا نذكر العالم الجليل والفقيه أحمد زروق البرنسي الفاسي (ت 899هـ / 1492 م) فيعد من كبار الفقهاء المتصوفة في القرن (9 هـ / 15 م) فقد عمل أستاذا بزاويته ، كما شرع في حركة التأليف ، فأخرج شرحه الفقهي على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ⁴² ، وبمرور الأيام أشاعت نورها و انتشرت شهرتها ، وتزايد عدد الوافدين عليها من كل حذب وصوب ، وكانت سببا في نشر الثقافة بمدينة بجاية وضواحيها ، كما احتوت على أمهات الكتب ، من المخطوطات في شتى فروع العلم ، من علوم القرآن وتفسيره ، وفي السيرة النبوية ، وفي مناقب الأولياء المتصوفة .

وقد لقيت هذه الزاوية اهتماما كبيرا من ذوي الخير والإحسان من الأمراء والولاة والأهالي للإتفاق عليها ، سواء كانت هذه الإتفاقات نقدا أو حبوبا أو زيتا وغير ذلك ⁴³ .

ويبدو أن زاوية يحي العيدلي ، لم تكن الفريدة بمدينة بجاية بل وجدت زوايا أخرى ربما أقل شهرة وأهمية منها ، إلا أنها ساهمت في نشر التعليم ، ومن أهمها زاوية الشيخ حساين بسيدي عيش ببجاية والتي تأسست على ما يبدو أواخر القرن (8 هـ / 14 م) ⁴⁴ وزاوية الشيخ السعيد أحسين الصدوق ، والتي تأسست على ما يبدو في القرن (9 هـ / 15 م) ولا زالت إلى يومنا هذا تؤدي الوظيفة نفسها ⁴⁵

و من خلال ما ذكرناه سابقا، نخلص أن الزوايا بجانب المساجد والمدارس في بجاية، قد أصبح لها نفوذ مواز لقوتها ،ودور فعال في المجال التربوي والتعليمي والديني.

المدارس

إن كلمة مدرسة في الأصل عبرية ،ثم دخلت اللغة العربية قبل الإسلام فيما دخلها من الكلمات العبرية ، ولكلمة درس في العربية معان عدة فدرس بمعنى قرأ ، ومن مادة درس اشتقت كلمة المدارس ، وهي الموضوع والبيت الذي يدرس فيه كل من المسلمين واليهود⁴⁶.

فالمقريزي روى رواية مشهورة عن بداية ظهورها ونشأتها في البلاد الإسلامية في قوله " إن المدارس لم تكن في زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما ظهرت بعد الأربعمائة من السنة الهجرية⁴⁷ ، وأول من بنى المدارس في الإسلام في القرن (5 هـ / 10 م) هو نظام الملك بإجماع جميع المؤرخين ، ولم تقف الحركة المدرسية عند الحدود المشرق الإسلامي ، بل اتسعت إلى غيره من البلدان المجاورة ، ولم تلبث هذه الحركة أن نشطت ببلاد المغرب، فبنيت المدارس وانتشرت على أيدي المرابطين والموحدين والزيانيين والمرينيين و الحفصيين .

وعن مدارس بجاية ، فلم نخبرنا المصادر عن أسماءها و لا عددها ، مع العلم أن المدارس كانت منتشرة بها منذ القرن (7 هـ / 13 م)، وهذا ما أكده لنا الغبريني ، حين ترجمته للشيخ الفقيه الإمام أبي عبد الله بن شعيب ، الذي قال عنه " ... "قد ولي مدارس فزانها بنظره وجملها بحميد أثره ... " ⁴⁸ وانتشرت فيما بعد، هذا ما أكده لنا الجغرافيين الرحالة الذين زاروا بجاية من أمثال حسن الوزان ومارمول كريخال فقد ذكر الأول مايلي : "... وبجاية مجهزة بالجوامع بشكل طيب ،وبالمدارس التي يكثر فيها الطلاب " ⁴⁹ ، وهذا أيضا ما أكده مارمول⁵⁰ .

وقد أوردت المعلومات التاريخية ، أن المدرسة في المغرب الإسلامي لم تكن تنقسم إلى عدد من الأقسام تبعا للمذهب ، كما كان معمولا به في المشرق ، وإنما كانت المدرسة على المذهب المالكي وحده⁵¹ .

وقد حرص مقيمو المدارس على أن يتخيروا لمدارسهم أحسن العناصر من العلماء وأجروا عليهم رواتب منتظمة ، وكان المدرسون يتقاضونها كل شهر⁵².

ويبدو أن المدارس الحفصية اضطلعت بوظائف هامة أهمها الوظيفة الدراسية والسكنية والتعبدية⁵³ ، ولهذا لا يمكن أن تبني مدرسة دون أن تتضمن بيتا للصلاة⁵⁴ وأكثر القادمين للتمدرس من خارج المدينة ينتمون في الغالب الأحيان إلى طبقة فقيرة لا يمكن أن توفر مبلغا للكرام ، فلولا هذه الوظيفة السكنية لما استطاع العديد من أهل البادية والمدن البعيدة مزاولة التعليم، و الأخذ عن علماء عصرهم ، وبتوفير السكن والتعليم المجانيين سمحت المدرسة للعديد من خريجها النابغين بالحصول على مناصب هامة .

والظاهر أن المدة المسموح بها للطالب للسكن بها هي خمس سنوات⁵⁵ ، وهو ما يستتبط منه أيضا أن الدراسة بالمدرسة كانت لمدة خمس سنوات مجانية، بعدها يدرس الطالب على نفقته الخاصة متديرا مأكله وملبسه وإيواءه .

المكتبات

المكتبات جمع مكتبة ، وتسمى أيضا بالخرزانة وهي اسم الموضع الذي يخزن فيه الشيء، وقد استعملت في العالم الإسلامي للدلالة على المكان الذي تحفظ فيه الكتب⁵⁶، ولا زالت إلى يومنا هذا تطلق في المغرب فيقال الخزانة العامة ، والخرزانة الحسنية أما في الجزائر وتونس فقد عرفت بالمكتبة الوطنية . والملاحظ أن المكتبات من أهم المؤسسات التعليمية ، فهي منبع من ينابيع المعرفة تحفظ فيها العلوم ومؤلفاتها في شتى فروع العلوم ، فتجعل الحياة من يعتمد عليها امتداد لحياة السابقين ، و من هنا كان اهتمام المسلمين بالمكتبات بصفة عامة وبجاية بصفة خاصة ، فقد عرفت انتشار المكتبات منذ زمن الحمادين ، وبما أن بجاية كانت تابعة للحفصيين بتونس فقد حرص سلاطينها على تدعيم النهضة الثقافية والتعليمية بها ولا يستبعد أن ببجاية مكتبة واحدة على الأقل في مسجد الجامع والثانية بجامع القصبه . ويذكر الغبريني أن عائشة بنت أبي الطاهر أن لها خط حسن ، وقد رأى بأمر عينيه نسخا لها في ثمانية عشر جزء من كتاب الثعالبي ،⁵⁷ وفي خاتمة كل سفر قطعة من شعر من نظم والدها، ويقول عن هذه النسخ " ما رأيت أحسن منها ولا أوضح "، وهو ما يؤكد الكاتب الفرنسي شاربونو Charbonneau في مقال له حول الشاعرة والنساخة عائشة ، يذكر أنها نقلت تفسيراً رائعاً بخط يدها مما أدى بأمر بجاية آنذاك أن يجعله بالمكتبة الملكية ببجاية⁵⁸ ، وإن سكنت المصادر عن وجود مثل هذه المؤسسة التعليمية والثقافية ببجاية، فغالبا على الظن أن علماءها و مثقفيها وأمرائها ، لم ييخلوا بإلحاقها بالمساجد أو المدارس، خاصة وأن سلاطين الدولة الحفصية كانت لهم يد الطولى في إنشائها وتزويدها بشتى فروع العلم، وأوقفوها على طلبة العلم ينتفعون بها بشرط ألا تخرج منها شيء ، خشية ضياعها وإتلافها⁵⁹ .

البيمارستانات

لفظ فارسي يتألف من بيمار بمعنى مريض أو عليل، وستان بمعنى مكان أو دار "أي المستشفى" بلغة العصر الحديث⁶⁰ وفيه يمارس صناعة الطب الذي يصفه ابن خلدون "بأنه ينظر إلى جسم الإنسان من حيث سلامته ومرضه ، فيحاول صاحب هذه الصفة حفظ الصحة وبرء المرضى بالأدوية والأغذية المناسبة بعد أن يعين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن ، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من أدوية للعلاج"⁶¹ .

والظاهر أن بجاية في القرن (7 هـ / 13 م) عرفت نهضة علمية مزدهرة بما فيها الطب ، ويذكر الغبريني مؤرخ بجاية في ذلك العصر أن الأبحاث العلمية في الطب ، كانت جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجلية ⁶² ، مما جعلها قبلة للطلبة في العلوم الطبية، ومقصداً للأطباء وعلماء التطبيق بوجه خاص ، حيث مارسوا مهامهم الطبية النبيلة ، ودرسوا مؤلفاتهم في جو أكثر استقراراً وأماناً. ومن أشهرهم في القرن (7هـ/13م) أبو القاسم محمد بن أندراس المرسي البجائي موطنا (ت 674 هـ / 1275 م) ،الذي اختاره الطبيب محمد الشريف الحسيني (ت 874 هـ / 1470 م)،لمزاولة الطب بعد امتحان اجتازه بنجاح بطلب من المستنصر بالله الحفصي ⁶³ ،الذي أشرف على استدعائه لممارسة مهنة الطب بتونس ،وقد هاجر ابن أندراس إلى بجاية واستقر بها في حدود منتصف القرن (7 هـ / 13 م) ⁶⁴ ومارس مهنته ، وكثرت مجالسه ودروسه العلمية ، ودرس الطلبة عليه كتاب " القانون " لابن سينا والعديد من الأراجيز الطبية الأخرى الشهيرة ⁶⁵ ، وكان حاذقا إذا سئل عن المسألة الطبية ، كثيرا ما كان يتوقف عن الجواب إلى بعد نظر، وكان مختصا في أمراض النساء والولادة ببجاية ، هو وبعض خواص الأطباء بها ⁶⁶ ،والجدير بالذكر أن ابن أندراس كان جيد المعرفة بالصيدلة ودراسة النباتات والبحث في خصائصها العلاجية ، حيث وضع أرجوزة في أسماء الأدوية الطبية المفردة المختلفة بعد أن أدرك خصائص النبات وتجول في أنحاء عديدة وقد كلف ابن أندراس الغبريني المؤرخ بنظم بعض الأدوية على سبيل التعاون فنظمت له بعضها -حسب قوله ⁶⁷ ويبدو أن تكليف ابن أندراس للغبريني في مجال تنظيم الأدوية يتعلق بمعرفة الرجل للنباتات الطبية الموجودة في بجاية باعتباره ابن بيئتها .

وقد كانت بجاية حسب الرحالة الإدريسي تتوفر على العديد من النباتات الطبية ذات أهمية في الدراسات الكيميائية والصيدلانية ، ففي وصفة لمدينة بجاية في القرن (6 هـ / 12 م) قال :.. "و ببجاية من النبات المنتقع به في صناعة الطب مثل شجر الحضض والسقولو ، والقندرسون والبرباريس والقنطاربيون الكبيرو الرواند والقسطون والأفسنين وغير ذلك من الحشائش ⁶⁸ ، وقد استفاد طلبة العلم بمدينة بجاية من الأطباء الصيادلة ،نذكر منهم الصيدلاني أبا القاسم أحمد بن سعيد كان حيا فترة حكم السلطان أبي حفص عمر سنة (683 ، 694 هـ / 1284 ، 1294 م) ⁶⁹ وأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي الجليل المعروف ابن الرومية (ت 637 هـ / 1239 م) دخل بجاية قبيل (613 هـ / 1216 م) ⁷⁰ ولقد استمر بروز الأطباء البجائيين في القرن 9 هـ / 15 م) بممارسة مهنة التطبيق ، حيث اشتهر العالم والفقير أبو الفضل المشدالي (821 ، 865 هـ / 1418 ، 1460 م) الذي درس الطب على يد محمد بن علي بن فشوش بتلمسان ⁷¹ ومحمد بن محمد بن عبد الله بن عيشون بن عمر اللخمي يعرف بابن عيشون المرسي البجائي موطنا (ت 720 هـ / 1320 م) ⁷² والأمر المؤكد أن بجاية كان لا يزال بها حتى بداية القرن (10 هـ / 16 م) مدارس كثيرة فيها الطلبة

والمدرسون مختلف العلوم بما فيها الطب مع وجود بيمارستانات حسنة البناء على حد قول وشهادة حسن الوزان " ⁷³ وهذا ما أكده التنسي قائلا " وفي بعض المدن المحاطة بالأسوار مثل قسنطينة و بجاية وتلمسان لازالت الحضارة في القرن التاسع ، حيث بها كذلك حمامات ونزل ومدارس ومستشفيات " ⁷⁴ وقد عبر برنشفيك أحسن تعبير عن الطب في افريقية إبان الفترة الحفصية فقال " إن الطب العربي بإفريقية قد بلغ درجة لم تصلها الشعوب وأمم أوروبية آنذاك " ⁷⁵.

خاتمة

وصفوة القول نخلص أن بجاية ساهمت في الحضارة والفكر الإسلاميين ،مساهمة فعالة محسوسة خلد أثرها التاريخ ، وحافظ على الكثير من معالمها، ففي الميدان الثقافي نجد نخبة من العلماء البجائيين و الأندلسيين الذين نبغوا في شتى فروع العلم من أمثال أبي مدين شعيب من أهل القرن السادس الهجري ، ومحي الدين بن عربي ، والششتري ، وعبد الحق بن سبعين وابن الآبار وناصر الدين المشدالي (631 هـ/ 731) إليه يرجع الفضل في جلب مختصر ابن الحاجب في فقه الفروع إلى بجاية وإفريقية ، وأبو علي المسيلي المشهور بأبي حامد الغزالي الصغير عالم بجاية ومفتيها ،ومحمد بن عمر الهواري دفين وهران) 843 هـ/ 1153 م)والفقيه عبد الرحمن الوغليسي و عبد الرحمن بن خلدون وأخيه محمد صاحب كتاب " بغية الوعاة "، وعبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي دفين الجزائر (865 هـ / 1460 م) صاحب التأليف العديدة وفي مقدمتها "جامع الأمهات في أحكام العبادات "إضافة إلى الرحالة الذين زاروا بجاية وخلدوا لنا ملاحظاتهم كالرحالة العبدري والشريف الإدريسي و حسن الوزان و مارمول كربخال وغيرهم .ويكفي بجاية فخرا أنها كانت محطة للقاء عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي التلمساني الجزائري بالزعيم الروحي محمد بن عبد الله بن تومرت ،وهذا بقرية ملالة التي تقع على نحو سبعة كلم من مدينة بجاية ،وما ترتب على ذلك من نتائج في مقدمتها ميلاد خلافة جديدة في المغرب يتزعمها عبد المؤمن بن علي ، وهي الخلافة الموحدية التي دامت من سنة (541 إلى 668 هـ / 1146 إلى 1269 م)

قائمة المصادر والمراجع .

- 1- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، نشره فرديناند قستنفلد ، المجلد 1 ، إعادة طبعه لايبستيك 1866 ، القسم الثاني بكت 1994 ، معهد العلوم العربية وإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت ، جمهورية ألمانيا ، المجلد 212 ، ص 495 ، 496 .
- 2- يحي بوعزيز أعلام الفكر والثقافة ، دار الغرب الإسلامي ، ط 12، بيروت ، لبنان ، 1995 ، ج 1 ، ص 12 .
- 3- إسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ملوك القلعة ببجاية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980 ، ص 186 .
- 4 - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، وأيام العرب والعجم ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1981 ، ج6 ، ص 375 .
- 5 - يحي بو عزيز ، أعلام الفكر ، ص 72 .
- 6 - نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ط1 ، 1989 ، المجلد 1 ، ص 260.
- 7 - أبو الحسن علي بن أبي زرع ، كتاب أنيس المطرب ، بروض القرطاس ، في أخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس ، ط 1843 ، ص 135 .
- 8 - محمد بن الشماخ ، الأدلة ، البيئة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم ، الطاهر بن محمد المعمري ، الدار العربية للكتاب تونس ، 1984 ، ص 49 ، صالح بعيزيق ، بجاية في العهد الحفصي ، دراسة إقتصادية ، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس ، 2006 ، ص 65 ، 66 .
- 9 - أحمد شليبي ، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، ط8 ، مكتبة النهضة الفكرية ، 1987 ، ص 97 .
- 10 - يوسف العريني ، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين ، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز ط 1 ، الرياض ، 1995 ، ص20.
- 11 - الطاهر بن عاشور ، أليس الصبح بقریب ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1997 ، ص 64 .
- 12 - عبد العزيز الخولي ، الفكر التربوي في الأندلس ، دار الفكر العربي ، ط2 ، 1985 ، ص 102
- 13- عبد الحميد عيسى محمد ، تاريخ التعليم في الأندلس ، ط1 ، دار الفكر العربي 1982 ، ص 217
- 14 - ابن عيدون (محمد بن أحمد التجيبي) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفي بروفنسال مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية، القاهرة ، 1955 ، ص 247 .
- 15 - ابن الشماخ ، الأدلة البيئية ، ص 125 ، ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ، تحقيق وتعليق ، محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، (د، ت) ، 1967 ، ص 157.
- 16 - الرصاع (أبو عبد الله محمد) فهرست الرصاع ، تحقيق وتعليق ، محمد العنابي ، المكتبة العتيقة تونس ، (د، ت)، ص 22 .
- 17 - محمد بن سحنون ، آداب المعلمين ، تحقيق ، حسن حسين عبد الوهاب ، طبعة جديدة ، بمراجعة وتعليق ، محمد العروسي المطوي ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1972 ، ص 109 ، أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي ، دار إحياء الكتب القديمة، القاهرة 1955 ، ص 96 .
- 18 - أحمد الطويلي ، الضوء المبين في التعريف بأولياء الله الصالحين ، المطبعة الرسمية التونسية ، تونس 2004 ، ص 91 .
- 19 - عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1970 ، ص 133 .
- 20 - وهي منطقة فيها قرى ببلاد القبائل بنواحي ميشلي ، انظر الغبيريني ، المصدر نفسه ، ص 134 .
- 21 - عنوان الدراية ، ص 151 .
- 22 - المصدر نفسه ، ص 165 .

- 23 - الغبريني ، المصدر السابق، ص 165 .
- 24 - تاريخ الجزائر الثقافي ، دار البصائر ، الجزائر 2007 ، ج 1 ، ص 45 .
- 25 - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج 6 ، ص 206 .
- 26 - الرحلة المغربية ، تحقيق، أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، (د، ت) .
- 27 - الغبريني، عنوان الدراية ، ص 215 .
- 28 - المصدر نفسه ، ص 140 .
- 29 - زرت بجاية مرات عديدة فسألت المختصين العاملين بالمتحف الواقع ببرج موسى في قلب المدينة عن موقع المسجد لأخذ له صورة ، فقبل لي أن مكانه غير معروف بالتدقيق ، وقد يكون تحت أنقاض المسجد الكبير .
- 30 - وصف إفريقيا ، ترجمة ، عبد الرحمان حميدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، 2005، ص 422 .
- 31 - إفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية ، محمد حجي والآخرون دار النشر المعرفة الرباط 1989 ج 2 ، ص 376 .
- 32 - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، عارضه بأصوله ووافق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د، ت ص 97 ، 99 .
- 33 - المصدر نفسه، ص 98 .
- 34 - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والاقتصادي و الثقافي والإجتماعي ط 13 ، دار الجيل ،بيروت 1991 ، ج 4، ص 401 .
- 35 - ابن مرزوق (محمد التلمساني)، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، تقديم محمود أبو عياد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981 .
- 36 - صفية ديب ، التربية و التعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، مؤسسة كنوز الحكمة ، للنشر والتوزيع ، الأبيار لجزائر ، 2011 ، ص 253 .
- 37 - عبد النعيم ضيفي عبد النعيم، الأزهر ودوره في المماليك الإسلامية في إفريقيا في عصر سلاطين المماليك ، رسالة مقدمة للحصول على رسالة الماجستير في الدراسات الإفريقية من قسم التاريخ ، جامعة القاهرة، 2003، ص 106 .
- 38 - الرازي (محمد بن أبي بكر عبد القادر)، مختار الصحاح ، دار الكتب الحديث ، الكويت 1994 ، ص 106
- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي) ، لسان العرب ، دار الصادر ، بيروت ، (د، ت) المجلد 7، ص 122 .
- 40 - عنوان الدراية، ص 135 .
- 41 - المصدر نفسه، ص 136 .
- 42 - محمد نسيب ، زوايا العلم والقرآن بالجزائر ، دار الفكر الجزائر ، (د، ت)، ص 218 ، 219 .
- 43 - محمد الشريف سيدي موسى ، الحياة الفكرية ببجاية من القرن 7هـ إلى بداية القرن العاشر، رسالة ماجستير نوقشت بمعهد التاريخ ،جامعة الجزائر 2001 ، ص 85 .
- 44 - محمد نسيب ، زوايا العلم ، ص 218 .
- 45 - المرجع نفسه ، ص 219 .
- 46 - ابن منظور ، لسان العرب ، ج 6 ، ص 86 ، سجستاني ، غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب ، ط 3 ، دار الرائد العربي ، لبنان ، 1982 ، ص 98 ، 90 .
- 47 - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د، ت ، ج 2 ، ص 102 .
- 48 - الغبريني، عنوان الدراية ن ص 173 .
- 49 - حسن الوزان، وصف إفريقيا ، ص 422 .

- 50 - إفريقيا، ج2، ص 377 .
- 51 - محمد غنيمه تاريخ الجامعات الكبرى ،دار الطباعة المغربية ، تطوان ، 1953 ، ص 299 .
- 52 - الزركشي ،(بدر الدين محمد) ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ط1 ، القاهرة (د، ت) ص 51.
- 53 - ابن القنفذ (أبو العباس أحمد بن الحسين القسنطيني) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ،تقديم وتحقيق محمد الشادلي النيفر ، وعبد المجيد التركي ، دار التونسية للنشر ، 1968 ، ص 156 .
- 54 - نفسه .
- 55 - ابن خلدون، المقدمة ،اعتنى به هيثم جمعة هلال ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 2007 ، ص 468 .
- 56 -أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ط10 ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، 1975 ، ج2 ، ص 63، 64
- 57 - الغبريني ، عنوان الدراية ،ص 78، 79 .
- 58 - Charbonneau aicha poète de bougie au 7° siècle in revue Africain année 1859 1860 o p u - Alger 1985 p 34
- 59 - الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 113 .
- 60 - أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، ط2 ، دار الرائد العربي ، بيروت لبنان ، 1981 ، ص 4 .
- 61 - المقدمة ، مهد لها ونشر الفصول وال فقرات الناقصة من طباعتها وحققها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها وعمل فهرسها ، علي عبد الواحد وافي ، ط2 ، لجنة البيان العربي ،بألمانيا ، 1965 ، ج3 ،ص 1079 .
- 62 - عنوان الدراية ، ص 102 .
- 63 - أحمد بن ميلاد ،الطب العربي التونسي في عشرة قرون ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999 ص 138 ، أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات ، ص 280 .
- 64 - الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 102 .
- 65 - نفسه .
- 66 - الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 101 .
- 67 - نفسه .
- 68 - نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ط1 ، بيروت ، 1989 ، مجلد 1 ، ص 260 .
- 69 - ابن القنفذ ، الفارسية ، ص 147 .
- 70 -لسان الدين أبن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، شرح وضبط وتقديم يوسف علي الطويل ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ، ج1 ص 83 ، 85.
- 71 - ابن مريم(محمد التلمساني) ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، تحقيق محمد بن أبي شنب ، طبع في المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه 1908 ، ص 312 .
- 72 - ابن القاضي ، درة الحجال ، في غرة أسماء الرجال ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 2002 ،ص 172.
- 73 - حسن الوزان ،وصف إفريقيا ، ج2، ص 422 .
- 74 - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، مقتطف من الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان حقه وعلق عليه محمود بوعياذ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، المكتبة الوطنية ، الجزائر 1985 ، ص 141 .

75 - تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي ، من القرن 13 إلى القرن 15 نقله إلى العربية حمادي الساحلي ط 1، دار الغرب الإسلامي،
1988 ، ج 2 ، ص 392..